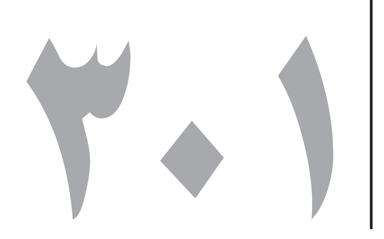
آفاق المعرفة



خـــط الثلـــث
عبقرية أمّـــةٍ وإعجاز قلـــم

معصوم محمد خلف*

للحرف العربي جمال أخّاذ، وذوق رفيع في شكله ورسمه وزخرفه والتفنن في وضعه على الصفحات الناصعة البياض أو اللوحات التشكيلية، وقد أجادت الأنامل المبدعة في رسمه وخطه، لذا برزت لنا منذ القرون الأولى لمولده أنواع متعددة الأسماء والأشكال عن الخط العربي مما رغب، وحث على تكوين دراسات ومناهج وبحوث حول الحرف العربي وكيفية خطه ورسمه وضبط شكله وفق القواعد المخصصة لها.

* ناقد وخطاط سوري.
- العمل الفني: الفنان علي الكفري.



حيث يعد الخط العربي من أجمل فنون العرب والمسلمين على حدٍ سواء، فالكتابة العربية التي تتميز بحروف طيعة ولينة في تعاملها مع الخطاط هي بالطبع طبيعية في تعاملها مع الشعوب التي اتخذت من أشكال الكتابة العربية منهجاً ثقافياً لها، والذي عزز ذلك اتخاذها الإسلام ديناً تهتدي به.

فالخط العربي كان وما يزال، وسيظل دائماً فياضاً بكل ما يضيء ويفيد ويبهج الحياة ويفتح الآفاق أمام الإنسان والمجتمع، وهو الشاهد على عصور النهضة الإسلاميّة والتقدم الذي واكب هذه النهضة في كل المجالات وعلى مر السنين والعهود.

وهو أحد صيغ الفنون الإسلامية الهامة، أثرى حياة المسلمين بتوكيده الصلة بين العقيدة والتعبير الفني الملتزم، ولما له من ارتباط بفنون التشكيل والزخرفة، مما منحه القدرة على التأثير العميق في فنون الحضارات الأخرى، وهو الوسيلة التي حملت آيات كتاب الله الكريم إلى كل بقاع الأرض والتي جاءت من خلالها إبداعات الآلاف من الخطاطين لآلاف من نسخ المصحف الشريف بدافع التقرب إلى الله والرغبة في نشر كتابه الفصل بين العالمين.

كما يؤكد الخطاط المسلم تفوقه في هذا المجال، لدرجة جعلت كل دارسي الخط العربي يجمعون على أن الفنان المسلم جعل للكلمة وظيفة جمالية إلى جانب وظيفتها السمعية.

وقد حظي الخط العربي في الإسلام بعناية خاصة، ولا غرو في ذلك، فهو ترجمان القرآن الكريم ووسيلته التي حفظ بها على مر العصور، حيث حرص الفنان المسلم على مدى أربعة عشر قرناً على تجويد الخط العربي وتحسينه، ووضع أقصى ما يمكن أن يضعه العقل البشري من القواعد والمعايير في سبيل تجويد هذا الفن وأحكامه لتكون بمنزلة قوانين ونظريات هندسية غاية في الدقة، لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، يرجع إليها كل من أراد حذق الكتابة.

وإن جولة واحدة بين مقامات الحروف المتنوعة واللوحات التي تمتاز بخط الثلث هي أجمل من حديقة غناء، كما إن المتعة الروحية التي تتفاعل مع الخطاط أثناء الكتابة لا يوازيها أي متعة على وجه الأرض، وهذه المتعة هي مزيج متآلف بين الإبداع والحركات التي يسطرها القلم من

خلال الكم الهائل الذي يحوم حول تلك المائــدة المنبسطة لأنواع شتى لحركات الحرف الواحد.

وأستشهــد قــول أحــد العلماء العاملين الذي يقول: «لــو علمت الملــوك ما نحن فيــه مــن المتعــة لجالدونا عليها بالسياط». لذلك فهي حصيلــة مدارســ وخبرات نوابغ وعبقريــات أشخاص متميزين، تجلت بين أناملهم جماليــات لا حصــر لها من الكتابة العربية.

كذلك فإنها تبعث في النفس المتعطشة بــوادر الاطمئنان والبحــث بلهفــة وشوق من مكامــن السر الدفــين لبوح الحرف والإيحاءات التي تنشدها بصمت وعبقرية وكمال.

ويروي لنا التاريخ أن الخليفة العباسي الواثق بــالله أنفذ ابــن الترجمان بهدايا إلى ملك الروم فرآهم قد علقوا على باب الكنيسة كتبــاً بالعربية فسأل عنها، فقيل لــه: هذه كتب المأمون بخط أحمد بن أبي خالد، استحسنوا صورتها فعلقوها. هذا ما حكاه الصولي، وقد أورد أيضاً أن سليمان بن وهب كتب كتاباً إلى ملك الروم في أيام الخليفة المعتمــد، فقال ملــك الروم، ما رأيت للعرب شيئاً أحسن من هذا الشكل، ومــا أحسدهــم على شــيء حسدي على جمال حروفهم، وملك الروم لا يقرأ الخط العربــي وإنما راقه باعتدالــه وهندسته، ويقول الخليفة المأمون: لو فاخرتنا الملوك الأعاجم بأمثالهــا لفاخرناها بما لنا من

أنواع الخط، يقــرأ في كل مكان، ويترجم بكل لسان، ويوجد في كل زمان.

كمـــا إن الخط العربي يرسم بأي شكل هندسي وبأية صــورة زخرفية فنية، فهو طــوع يد الفنــان الماهر والمبتكــر والنابغ المبدع، ولذلك نجد لــه منذ بدء الإسلام إلى اليــوم أكثر من مئة نوع، وليس له حد يقف عنده، مــع العلم أنــه لا يطرأ على معالمــه الأصلية أي تغيــير أو تبديل مهما تشعبت أقسامه وتعددت أقلامه.

والخطاط الناجح هو ذلك الذي يمتلك تلك الشفافيــة العذبة للخوض في ميدان هذا الفن الرفيع.

فالموهبة والإيمــان والصبر والتواضع والخلق الحسن، ويضــاف إليها التدريب المستمر والعنايــة الدقيقة بشكل الحرف وطريقة أدائــه السليمة، فمن يمتلك تلك المحاســن يتكــون في شخصــه الخطاط الناجح والمبدع الذي يعطي رصيداً جديداً لهذا الفن الخالد.

وسنتطــرق في هــذا السيــاق إلى قلم الثلث الــذي يعتبر بحق جوهــرة الأقلام العربية.

أم الخطوط:

يعتــبر خط الثلث، أو قلــم الثلث، من الخطوط الكلاسيكية، وهو سيد الخطوط عند جميــع الخطاطين لصعوبــة تعلمه واحتياجــه إلى مدة طويلــة وهو من أروع الخطــوط العربية جمالاً وكمالاً، وأكثرها صعوبــة من الخطــوط الأخرى من حيث القواعد والموازين والحبكة، وعندما يقال عن خطاط معــين إنه مجيدٌ لخط الثلث، فمعنى ذلــك أنه قد تجاوز ما لا يقل عن عشريــن عامــاً في تعلم قواعــد وأصول الخط العربي.

وفيه تتجلى عبقرية الخطاط في حسن تطبيق القاعدة مــع جمال التركيب، وقد استعمل هــذا الخط بكــثرة للكتابة على جــدران المساجد، وفي التكوينات الخطية المعقدة وذلــك بسبب مرونتــه، وإمكانية سكــب حروفــه في كل الاتجاهات، حيث تبدو الكتابة كأنهــا سبيكة واحدة يملؤها التشكيل لترتيب الحروف بغية إيجاد أنغام مرئيــة تتخللها فراغات صامتة أو ممتلئة بزخارف دقيقة، فتراه يتحرك وهو جامد، فيجعل من اللوحة ضرباً من الإعجاز، كما أن اتصالات الحروف ببعضها فيها شيء مــن القوة تتناسب مع عظمة ومرونة هذا النوع القوي من الخط.

وتختلــف أساليب الخطاطين في كتابة هذا النوع، كما يختلفون في طريقة التشكيل والتجميل، ويمكن كتابة هذا النوع بطريقة

التركيب الخفيف أو بالطريقة المرسلة، ويمكن أيضاً كتابة هذا النوع بطريقة التركيب الثقيل أو إدخال الكتابة في أشكال هندسية وتكوينات زخرفية، ونظراً لأنه يأخذ وقتاً طويلاً في الكتابة، فهو يقل في كتابة المصاحف وتقتصر كتابته على العناوين وبعض الآيات والجمل.

مميزات خط الثلث:

- أنه إذا لم يكتب وفق شروط القاعدة لا يكون جميلاً وباهراً.

- ويمتاز خط الثلث عن غيره من الخطوط في التركيب، فالجملة الواحدة يمكن أن تكتب بعدة أشكال باختلاف تركيب الحروف.

- كما إن لكل خطاط طريقته الخاصة في الكتابة تميزه به عمن سواه من الخطاطين.

- الاهتمام الكامل برسم أي حرف من حروف خط الثلث، وإن أي إهمال بسيط يشوه جمال اللوحة.

- الحركات الإعرابية والتشكيلات الخاصة بخط الثلث تُكتب بقلم آخر عرضه ربع عرض القلم الأصلي عدا بعض منها فإنها ترسم بعرض القلم الأصلي، وعلى الخطاط أن يتقن كيفية توزيع هذه الحركات والتشكيلات توزيعاً فنياً سليماً في اللوحة.

- يمتاز قاعدة خط الثلث بأنها ثابتة، إلا أن هناك فرقاً بسيطاً في بعض الحروف لدى المدرستين البغدادية والتركية.

- كما إنه لابد من أستاذ ماهر يُعتمد عليه في خط الثلث، للتعلم منه وتقليده واستشارته في الخط.

ومن خلال سير الخطاطين العظام نرى أن الخطاط يعتمد في تدريبه على هذا النوع إلى أكثر من خطاط، لتزداد في خبرته العملية تجارب عديدة وابتكارات متنوعة ليسلك بعد ذلك النهج الذي يلائمه ويتفاعل معه. وسمي بخط الثلث، لأنه يكتب بقلم يبرى رأسه بعرض يساوي ثلث عرض القلم الذي يكتب به الخط الجليل، كما أنه أصغر أيضاً من الطومار، ويعتبر أم الخطوط العربية بجماله وسيطرته على باقي أنواع الخطوط، فقد كان المنهل الأساسي لأنواع كثيرة من الخطوط العربية، ولا يعتبر الإنسان خطاطاً إلا إذا أتقن قواعده.

أبو الثلث:

اخترعه الخطاط قطبة المحرر عام ١٣٦هـ- ٧٥٣م أول خطاط في عهد بني أمية واستخرج أربعة من الأقلام الكوفية الموجودة وقد اشتق بعضها من بعضها الآخر وهو الكاتب الوحيد للخط العربي

على هذه الأرض. وتجمع المصادر على اعتبار الخطاط ابن مقلة هو أول من وضع قواعده، وأجاد فيه، وكان له الفضل الكبير في إيجاد الصيغة الفنية له، وبعد ابن مقلة جاء الخطاط ابن البّواب، فتفنن فيه واخترع له أنواع جميلة.

وبعده تسابق الخطاطون في إجادة رسم حروفه وتكويناته، حتى أصبح في أجمل شكل وأبهى حلة. وأصبحت حروفه الموزونة بالنقط موضع اهتمام الدّارسين والباحثين في مختلف أقطار العالم العربي والإسلامي. ويقول صاحب كتاب /إعانة المنشئ/ عن خط الثلث: إنه أول خط ظهر منبثقاً عن الخط الكوفي منذ بدء نشأة الأقلام المستعملة في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس. وقال صاحب الأبحاث الجميلة في شرح الفضيلة: إن الأقلام الموجودة الآن مستنبطة كلها من الخط الكوفي. وفي كتاب /صفوة الصفوة/ ما معناه أن التابعي الجليل، الحسن البصري رضي الله عنه الذي عاش ثمانية وثمانين عاماً هو الذي قلّب القلم الكوفي إلى النسخ والثلث. وقد جاء بهذه الرواية المهندس ناجي زين الدين المصرف في كتابه /مصور الخط العربي/ ص٣٠٨/ ١٩٨٠ط بغداد/.

وقد اعتمد هذا الرأي بدافع مكانة هذا الرجل الاجتماعية والدينية فقد ذاع صيته لمتانة خُلُقه وعلوّ مكانته، وكان ورعاً فصيحاً، أعجب به الناس فنسبوا له هذا الحدث الهام.

وللكتابة بخط الثلث يقول الأستاذ محمد عبد القادر، المدرس بمدرسة تحسين الخطوط العربية في القاهرة بخصوص الكتابة: نقطع منقار القلم بانحراف يساوي ثلث المنقار فنحصل على قلم ملائم لخطي الثلث العادي والثلث الجلي.

أنواع عديدة:

ينقسم خط الثلث إلى أنواع عديدة حسب شكلها وطريقة الإبداع فيها. وأنواعه هي: خط الثلث الجلي، خط الثلث المحبوك، الخط الثلثي الزخرفي، الخط الثلثي المتأثر بالرسم، خط الثلث المختزل، الخط الثلثي المتناظر، فالخط العربي يمتلك من الخصائص الجمالية الكثير ويتميز بآفاق جمالية واسعة تعطي تكوينات فنية لا حدود لها فالحرف العربي تراث متجدد أينما يقف يسمو وأينما تحرك فهو يعطي للعين موسيقى تسحره إلى شواطئ الإبداع والخيال الخصيب.■■

المراجع

- فن الخط، مصطفى أغور درمان، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول.
- الخط العربي، حسن المسعود. دار فلاماريون، باريس. فرنسا.
- أطلس الخط والخطوط. حبيب الله فضائلي. ترجمة، محمد التونجي. دار طلاس. دمشق
- الخط الزاهر الجلي. للخطاط جواد سبتي النجفي، مطبعة الشهيد، طهران، جمهورية إيران الإسلامية.
- موسوعة الخطوط العربية وزخارفها، معروف زريق، دار المعرفة. دمشق.
- الخط العربي. الدكتور عفيف البهنسي. دار الفكر، دمشق.
- الخط العربي من خلال المخطوطات، هدية مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
- تاريخ الخط العربي وآدابه، محمد طاهر الكردي المكي، الجزء الثاني، هدية من نفس المركز السابق.
- خط الثلث، رحلة مع الخط العربي، مجلة الفيصل، العدد ٣(ذو الحجة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م).
- قصة الكتابة العربية، إبراهيم جمعة ط٢، دار المعارف. ١٩٦٧ سلسلة اقرأ، القاهرة.

